

شهادة أسير ألماني على حكم المهدي في السودان

«سجين الخليفة» كتاب يكشف انتهازية أصحاب الخطاب الديني



القوات البريطانية تهزم دراويش المهدي في معركة أبو طليح

سيطول، لكنه سيحظى بالخروج بعد سنوات بسبب خادمتها حسينة التي ستحمل من السجنان إربيس السابر، الحربة مقابل إعلان القبيلة تأييدها والولاء التام له باعتباره الخليفة الأحق بالطاعة، وهو ما حصل بالفعل. وبدت شخصية التعايشي المصدرة من خلال شهادة نيو فيلد، انتهازية، وشديدة المكر والدهاء، وتعتمد القوة أساسا للحكم.

وهنا سيقومون بإخراجه من السجن وتحديد إقامته داخل أم درمان، وبالفعل يوافق على الزواج بحسينة ويعمل طبيا لأسرة الخليفة عبدالله التعايشي لبقية محدد الإقامة داخل أم درمان، ثم يتابع الشاهد قصص هروب الكثير من السجناء ومنهم رولف سلاطين.



رودارد كيلبinger: أيها الفارس اللعين والمقاتل المصطفى، إليك يا ذا الشعر الثائر، تهانينا فقد كسرت المربع البريطاني

ويحكي بعد ذلك عن بدء إرسال رسالته إلى قيادة القوات البريطانية والقبض الألماني في القاهرة بخبرهم فيها بأنه حي، بعد أن فشل في الهرب، ثم تنتصر القوات على المهديين في عدة معارك وتقبض على الخليفة وتعدمه لتنتهي الحركة المهديّة تماما، وتحرر السجناء، ويعود بعدها الأسير الأوروبي إلى حريته.

يستعرض الشاهد آراءه بشأن السودان، قبائله، عادات أهله، سماتهم الإنسانية، وتصوره للناحية الدينية في تسيير المهدي، وتوجيه الناس، مع قراءة سريعة المهديّة لم يقيموا حكما أفضل وأعدل من الحكم الذي اطلحوا به، وأنهى الرجل شهادته بأنه أن الأوان لنرى السودان بنظرات واضحة، وشفيقة، وأن ننظر إليه نظرة مختلفة عن النظرة السابقة.

لدولته، فمثلا كان من بين السجناء ثلاثة من أبناء زعيم قبيلة الشكرية، وبعد فترة طويلة في السجن عرض الخليفة عليهم الحربة مقابل إعلان القبيلة تأييدها والولاء التام له باعتباره الخليفة الأحق بالطاعة، وهو ما حصل بالفعل. وبدت شخصية التعايشي المصدرة من خلال شهادة نيو فيلد، انتهازية، وشديدة المكر والدهاء، وتعتمد القوة أساسا للحكم.

حكايات كاشفة

قدم الكاتب ذلك من خلال حكايات شهدها خلال فترة السجن، منها مثلا حكاية شيخ دين سوداني اسمه حمد النيل، لم يكن قد شارك في الحرب المهديّة ولم ينضم إلى أي طرف، لكنه كان يحظى بشعبية كبيرة، ويقول للناس إن المهدي ومن معه كاذبون، ما دفع الخليفة إلى أن يُلحق له تهمة حيازة تمباك (دخان) في بيته، وكان محرما بامر المهدي ثم حكم عليه بالسجن ومصادرة أمواله.

وبقي حمد النيل مسجوناً إلى أن اعتلت صحته وقارب على الهلاك، فقام الخليفة بإطلاق سراحه، لكن تحسّن صحته دفع الخليفة إلى أن يامر بالقبض عليه مرة أخرى ليسجنه حتى الموت. وحتى قرار الخليفة بالإبقاء على نيو فيلد حيا استهدف إقناع أنصاره بأنه فعل ذلك ليثبت للناس أن ملك ألمانيا يخاف أن يرسل جيشا لتحرير الأسير الألماني، لأنه يخشى باسه وقوته.

في يوم من الأيام حضر شخصان إلى السجن وطلبا تشارلز نيو فيلد الذي تحول اسمه إلى عبدالله المسلماني، وقال له إن الخليفة يريدك، وتوقع الحاكم نهايته، فودع زملاءه ومضى معهما بسلاسله الثقيلة التي أصابت قدميه بالورم والقروح، غير أنه فوجئ بالخليفة يطلب منه أن يستعرض جيشه، ليرى صفوفًا من الرجال والخيول والعتاد، وسأله أحدهم عن رأيته، فقال "إن لديكم الرجال والخيول لكن ينقصكم التدريب".

أعادوه إلى السجن مرة أخرى ليتم تخفيف القيود عنه ويسمح له بالخروج كل صباح مع السجناء إلى شاطئ النيل للوضوء ثم الاصطاف في الصلاة والجلوس بعدها لسماع القرآن وتفسيرات المهدي لها.

الأجساد، وممتلئ بالقاذورات والحشرات، تنتشر فيه الأمراض، ويكثر العراك ليلا حتى أنهم كانوا يجدون جثتا كل صباح لمن لا يحتملون البقاء.

يتذكر المؤلف كيف كان السجناء لا يجدون طعاما إلا الذي يرسل إليهم من أقاربهم ومعارفهم، وكانوا يأكلون منه الفتات، أما معظم الطعام فقد كان من نصيب الحراس. وكان مما لفت نظره أن السجناء يتكافون في ما بينهم فيأكلون معا، وحتى أولئك الذين لا يجدون من يرسل إليهم طعاما لا يموتون جوعا.

ثم يعاد السجناء على عالمه الجديد ويتحدث مع زملائه ومعظمهم من المصريين الذين سقطوا في الأسر خلال معارك سابقة عن احتمالات خروجهم أحياء من ذلك القبر.

يقول الشاهد في كتابه "كان بعض السجناء من قدامى عساكر الجيش المصري الذين أسروا عند سقوط الخرطوم وغيرها من المناطق كانوا ينتظرون يوما وراء يوم، وأسيبوعا وراء أسبوع، وسنة وراء أخرى، ولديهم أمل كبيرة في أن ترسل الحكومة التي حاربوا من أجلها إليهم قوات لتحريرهم، لكن مع الوقت خبت الأمل تماما".

كان النظام المتبع مع السجناء الأوصياء الخضوع لفترة تعليم وتلقين لمبادئ المهديّة، على أن يتم تحرير من يؤكّد اقتناعه وثقته في المهديّة باعتبارها طريق الحق الأول، وساعتها يتم تعيينه ضمن جيشها لقتال الأعداء.

خضع السجناء الأوروبي لدروس تلقين من أحد أقارب الخليفة، ليخبره بأن الملائكة كانت تحارب مع جيوش المهديين، وساهمت في قتل الجنرال غوردون، وبعد فترة عرضوا عليه اعتناق الإسلام وقبول الطريقة المهديّة، فقرر اعتناق الإسلام، لكنه رفض الطريقة المهديّة، وكتب عن ذلك "كنت أعرف جيدا ما يعنيه قبولي التام لإيماني بالمهديّة، سيطلقون سراحي لكنهم سيجعلوني مسؤولا عن بعض القوات، بالطبع لم تكن لدي رغبة في أن يعثر علي في الميدان بعد القتال بجبهة المهديّة، وأنا مقتول برصاصة بريطانية".

خلال محاولات التجنيد تم عمل جولة للسجين الأوروبي وسط سجناء آخرين إلى قصر غوردون، وبقايا هيكل عظمية لجنوده ليخبره رجال الخليفة أنهم سيفتحون القاهرة وسيكون مصير البريطانيين فيها مثل مصير غوردون ورجاله، لكنه لم يجذب ويقبل الانضمام إليهم، ولما شعروا بالفشل في إقناعه أعادوه إلى السجن مرة أخرى.

يحكي الشاهد عن بعض السجناء معه وكيف كان الخليفة عبدالله التعايشي يوظفهم لتحقيق انتصارات جديدة

مصر لتيسير نقل بضائعهم. المهم أن نيو فيلد حصل بالفعل على إذن من الجنرال سيتفنتسون القائد العام للقوات البريطانية في مصر، لكن القائد البريطاني طلب منه أن يتقل مع قافلته المتجهة إلى كردفان رسائل إلى الشيخ صالح ولد سالم شيخ كبايش، دعاه فيها إلى جمع الرجال لقتال من يسمون بـ"الراويش"، أي المهديين.

ما جرى بعدها لم يكن غريبا في مثل هذه الأثناء، إذ وشى الدليل الذي استأجره نيو فيلد به إلى أحد قادة المهديين، وهو ولد النجمي في دنقلة، حيث دير كمينًا للقاءة وقام بمصادرة كافة ما تحمله من بضائع وقرر إعدام الحرس وأسر نيو فيلد وخادمته ثم أرسله مكبلا بالسلاسل إلى سجن أم درمان.

وضّح الأوروبي المرفّه في عنبر مُزجح بسودانيين ومصريين مربوطة أقدامهم بسلاسل حديدية. كانت الوجوه حوله بائسة وتحمل مزيجا من الخوف والانكسار، وبدا الكثير من السجناء متوعكين وكان هناك من يعانون من مرض الجدري إلى درجة الاحتضار.

وشاعت في المكان ورائح كريهة، ما جعل الأسير يؤمن بأن نهايته اقتربت، ولم يطق الثري المكان فأغى عليه وإفاق ثم أغى عليه مرات حتى شعر بالحمن تغرز جسده، ولم تفارقه الكوابيس.

وبعد أيام جاءه رجل مصري اسمه حسن جمال ليسأل عن حاله، ثم سمحوا له بإحضار خادمتها الإثيوبية حسينة، وتم إلحاقها بخدم حريم الخليفة لتعد له الطعام وتساعد.

يتذكر السجن اسم سجنائه، إربيس السابر، ويصفه بأنه غليظ وقوي البنية يحمل في يده سوطا، ويهابه الجميع، وقيلت في شأنه أساطير عديدة، منها أنه كان أحد اللصوص وقطاع الطرق قبل أن يلتحق بالمهدي ويجعله حارسا لسجن يضم الأشقياء واللصوص.

رغم ذلك فقد كانت صفات اللصوصية والسلب مغروسة في شخصيته إلى درجة أنه كان يعذب بسوطه أي شخص يعتقد أن لديه شيئا له قيمة. وكثيرا ما كان السابر يجمع المساجين ليلقي عليهم خطبة دينية أو يبلغهم أوامر الخليفة أو يحذرهم من الهرب.

مشهد السجن نفسه لا يغيب عن ذهن نيو فيلد، فهو مكان مزجح بمئات

بمئات الكتاب عن غيره من شهادات متنوعة بشأن السودان في زمن الخليفة بعدة سمات تجعله مرجعا مهما، أولاها أنه شهادة رجل مدني غير بريطاني، ما يجعله أكثر حيادا تجاه الأحداث. كما أن مؤلف الكتاب هو نفسه شاهد العيان المباشر على الأحداث، إذ يحكي ما رآه وعاشه، لا ما نُقل إليه أو استنبطه، ما يرجح مصداقية الشهادة. فضلا عن ذلك ضم الكتاب صورا فوتوغرافية قديمة ونادرة تم تصويرها آنذاك بإتقان، رغم بدائية فن التصوير الفوتوغرافي، وتوزعت على فصول الكتاب المختلفة. جاءت مقدمة الكتاب تقليدية، وفيها ركز الشاهد على ما دعاه إلى الكتابة، مشيرا إلى رغبته في توضيح ما جرى له بالفعل وسرده بعد أن شاعت روايات خيالية بشأن أسره، ووصل الأمر إلى حكايات نشرتها بعض الصحف الأوروبية بتعرضه للقتل سنة 1887 ما سبب ألما بالغا لأقاربه ومعارفه.

ونشر البعض الآخر قصصا مختلفة تشير إلى أنه كان آخر شخص تحدث إلى غوردون قبل مقتله، علاوة على اتهامات له بتجسسه لصالح الإنجليز، وغيرها من الاجتهادات التي دفعت إلى ضرورة تقديم شهادته الشخصية مباشرة.

بداية الحكاية

حكاية الرجل تبدأ في مطلع سنة 1887 عندما كان في مدينة أسوان، جنوب مصر، والنقى بشخص اسمه جمال ضيف الله، شقيق إلياس باشا محافظ كردفان بجنوب السودان، وعرض عليه مشاركته في صفقة صمغ عربي ضخمة تزيد عن ألف قنطار بسعر مُفر، وقال له إن مالك الصمغ خائف من أن تتم مصادرة بضاعته عند نقلها إلى الحدود المصرية.

كان كل ما يحتاج إليه ضيف الله الوصول إلى رجل أعمال أوروبي على علاقة جيدة بالسلطة البريطانية الحاكمة في مصر لتسمح له بإبدال الصمغ. وبالطبع لم تكن قصة المهديين في حسان رجال الأعمال الأجانب العاملين بين السودان ومصر، إذ كانوا يعتمدون على شيوخ القبائل داخل السودان، والسلطات البريطانية داخل

لم تتم حكاية الثورة المهديّة في السودان فصولها كما يقولون، فما زالت بحاجة إلى دراسات وافية، ويمثل كتاب "سجين الخليفة" لتشارلز نيو فيلد إطلالة جانبية مهمة على أحداث الثورة، ويكشف بذكاء انتهازية أصحاب الخطاب الديني للوصول إلى السلطة.



ثورة المهديّة بالنسبة إلى البريطانيين حدث استثنائي انغرس في وجدانهم سنين عددا. وليس أدل على ذلك من أن الشاعر البريطاني الكبير روديارد كيلبinger (1865 - 1936) كتب في إحدى قصائده عن الثائر السوداني محمد المهدي الذي قلب السودان رأسا على عقب، وسماه الأثعث، ووصفه بأنه يقفز بين الأحرار حاملا ترسا وحرية، وقال له "أيها الفارس اللعين والمقاتل المصطفى، إليك يا ذا الشعر الثائر، تهانينا فقد كسرت المربع البريطاني".

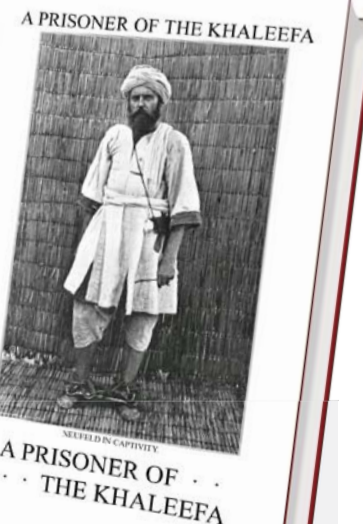
مثلت الثورة منذ قامت في مارس 1881 انطلاقا مبكرا لرجال الدين لانتزاع السلطة، إذ دعا محمد أحمد المهدي زعماء القبائل لمبايعته بعد أن رأى النبي محمد في المنام وأخبره أن يبدا دعوته ويستولي على السلطة.

بالفعل ثارت القبائل معه وطردوا الإدارة المصرية، ثم حققوا انتصارات متوالية على القوات البريطانية التي ذهبت إلى هناك بقيادة تشارلز غوردون، ومعها فلور الجيش المصري المنهزم مع أحمد عرابي، وانتهى الأمر بحصار قوات المهدي للخرطوم واقحامها وقتل غوردون نفسه، ثم توفي المهدي لاحقا وخلفه عبدالله التعايشي الذي حمل لقب الخليفة.

يحكي الشاهد عن سجنائه معه وكيف كان الخليفة عبدالله التعايشي يوظفهم لتحقيق انتصارات جديدة لدولته

من هنا تكتسب أي شهادة بشأن تلك الأحداث أهمية قصوى لتفتح لنا نافذة على أحداث غرائبية كثيرة، ربما مثلت استثناء في تاريخ الاستعمار للمنطقة العربية، ويمثل كتاب "سجين الخليفة" لتشارلز نيو فيلد شهادات لم تطلع عليها الأجيال الحديثة. لقد كان من المفيد أن يتيح مشروع "غوتتبرغ" البريطاني لنشر الكتب القديمة والنادرة ذلك الكتاب للباحثين للاستفادة من شهادات لم تطلع عليها الأجيال الحديثة.

صدر الكتاب سنة 1899 في لندن عن دار شابمان - هال، في 25 فصلا ونحو 330 صفحة، ويحكي تجربة ذاتية لرجل أعمال ألماني الجنسية هو تشارلز نيو فيلد كان على اتصال بالجيش البريطاني، وحصل على إذن للدخول لشراء الصمغ صمغ عربي مُغرية، لكنه وقع في الأسر لدى قوات المهدي، وظل سجيناً اثني عشر عاما في أم درمان خلال فترة التعايشي.



يمتاز الكتاب عن غيره من الكتب بعدة سمات تجعل منه مرجعا مهما أولاها أنه شهادة رجل مدني غير بريطاني